الفصل الرابع :

شواهد التاريخ

لم تكن المبادئ والنظريات والقوانين والشعارات التي تنادي بالتسامح والرحمة والعدل وكل المعاني السامية والمثل العالية كافية وحدها في يوم من الأيام لإثبات صدقها وتحقيق أهدافها ما لم تكن مُصدَّقة بعمل ومُؤيَّدة بسلوك ، فما أسهل الادعاء والتقول ، وما أيسر التلون والتحول ، ولكنه من الغباء بمكان أن يظن أولئك المتحلون أن ذلك كاف لإقناع العوام والدهماء فضلاً عن المثقفين والأذكياء ، إنه ليكاد أن يكون مستحيلاً إقناع طفل صغير برحمتك وأنت تمارس التعذيب والاضطهاد ضده، إن حقيقة الواقع لهي النور الذي يكشف ظلام الزيف والدجل مهما تخفَّى بجمال ثوب أو ملحون قول.

من هنا كانت عظمة الإسلام ، هذه العظمة التي لم تكن لو كان الإسلام مجرد أوامر و نواه لا أثر لها ولا تطبيق ، لقد تسلل الإسلام إلى قلوب الناس بلا استئذان وبلغ ما بلغ الليل والنهار لأنه تجسد صوراً حية من خلال معتنقيه ، ولندع التاريخ يقدم لنا بعضاً من صور التسامح وحسن التعامل الإسلامي مع الآخرين.

الحرية الدينية :

لقد أعطى الإسلام الحق لكل إنسان أن يعتقد ما يشاء وأن يمارس عبادته دون قيد أو إكراه ، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة٢٥٦] فلا عبرة عند الله لإيمان اللسان مع تكذيب القلب ، ذاك إيمان المنافقين الذين اعتبرهم القرآن أعظم جرماً وأشد كفراً ممن أعلن كفره بالإسلام وتكذيبه له بالرغم من أنهم كانوا يمارسون

شعائر الإسلام الظاهرية ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء١٤٢] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء ١٤٥] ولو أن الله تعالى أراد الإيمان بالجبر والإكراه لخلق الناس جميعاً وفق ما يريده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس٩٩].

ولكنه تعالى ترك الناس وحريتهم واختيارهم عندئذ يكون للإيمان قيمة ومعنى ثم يكون الجزاء المترتب على حرية الإرادة والاختيار ، فمسلوب الإرادة والمكره معفو عنه غير مؤاخذ بما أُجْبِر عليه ، فالمؤمن الصادق لا يخرجه من إيمانه كفر اضطر إليه تحت التعذيب والإكراه طالما أن قلبه باق على الإيمان لم يتحول ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل١٠٦].

فلا يملك أحد دون الله أن يغرس الإيمان في القلوب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص٥٦] ولا أن يثبته في القلب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران ٨] ولذا لما أكره عمار بن ياسر على أن ينال من الرسول الكريم ﷺ فسبه تحت التعذيب وجاء إلى النبي ﷺ مستفسراً : ما تركوني حتى نلت منك ؟ فقال له الرسول ﷺ : « فما بال قلبك يا عمار؟ قال : مطمئن يا رسول الله فقال له : « إن عادوك فعد » فنزلت الآية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ . إن رحم الإيمان ومحضنه ومسكنه هو القلب يسري في ذرات النفس يجول مع الدماء يسري في الجسد سريان الروح ، عرَّفه علماء العقيدة فقالوا : هو تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان ، أبعد هذه يجرؤ من يدعي أن الإسلام انتشر بالسيف ، إن هذا لهو عين الحيف ، كيف يسوغ هذا القول على أحد وتلك آيات القرآن تُتلى ويرددها الجميع بما فيهم صغار المسلمين ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس٩٩] ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل١٩] ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف٢٩] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية٢١ ، ٢٢] ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء٨٤] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود١١٨].

قال الإمام محمد بن الحسن الشيبانى : « لم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من خلفائه أنه أجبر أحداً من أهل الذمة على الإسلام ...وإذا أكره على الإسلام من لايجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً »[1] وبمثله قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة : « وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم ، لم يثبت له حكم الإسلام حتى يُوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً »[2]

وقد سمح الخليفة الظاهر للمجبرين على الإسلام زمن الحاكم الظالم والمستبد الغالي الحاكم بأمر الله سمح لهم الظاهر بالعودة لدينهم ، فرجع الكثيرون منهم سنة ٤١٨ هجرية[3]

وعندما أُجبر موسى بن ميمون على التظاهر بالإسلام فر إلى مصر ، وعاد إلى دينه ولم يعتبره القاضي عبد الجبار البيساني مرتداً بل قال : « رجل يكره على الإسلام ، لايصح إسلامه شرعاً » وعلق على ذلك الدكتور ترتون بقوله : « وهذه عبارة تنطوي على التسامح الجميل »[4]

حرية ممارسة العبادة :

وإذا نظرنا إلى أحوال غير المسلمين في ظل حكم المسلمين نجد أنهم تمتعوا بكامل حريتهم الدينية ومارسوها وفق شرائعهم تحت حماية المسلمين بل وجدوا في المسلمين رحمة ورأفة لم يجدوها من أهل دينهم المحتلين لبلادهم كما هو الحال في مصر وفي بلاد الشام تلك البلاد التي كانت تحت حكم الرومان ومارس الرومان عليهم عذاباً واضطهاداً دينياً وإرهاقاً مالياً وعذاباً جسدياً كان الموت هو غاية الأماني للمعذبين ، وما رفع هذا الظلم عنهم ورد لهم كرامتهم سوى المسلمين.

١- السير الكبير - ج ١٠ / ص١٠٣ .
٢- المغني - ابن قدامة ج٩ / ص٢٩ .
٣- أهل الذمة في الإسلام - ترتون ص٢١٤ .
٤- المصدر السابق - ص ٢١٤ .

ولنترك التاريخ يحدثنا عن سماحة الإسلام في الحريات الدينية :

الرسول ﷺ وأهل مكة :

على الرغم من كل ما عاناه النبيﷺ من أهل مكة حيث التكذيب والإيذاء النفسي والجسدي حتى قتلوا المستضعفين من أتباعه تحت التعذيب وحاصروه والمؤمنين ثلاث سنوات في شِعْب أبي طالب ومنعوهم الطعام حتى مات الكثير منهم وخاصة الضعفة من الأطفال والكهول والعجائز ، وعلى الرغم مما قاساه وعاناه فقد قابل الإساءة بالإحسان والغدر بالوفا وقابل بالبر الجفا ، فحلم وصبر وعفا وغفر عفو المتمكن القادر لا المستكين الخائر.

روى الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة : « أن النبي ﷺ بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم على الرغم مما قاساه وعاناه هو وأصحابه » أطلق أسراهم جميعاً بلا مال أو فدية.

فتح مكة :

لا لوم أو تثريب على قائد ظفر بأعدائه الذين قاتلوه ظلماً واعتدوا عليه في نفسه وفي جسده وفي أهله وأصحابه ودينه وعقيدته وما تركوا من سبيل للنيل منه إلاوسلكوها وما من أحد يمد لهم يد العون في إيذائه إلا وسعوا إليه وهم على ذلك حتى انجلت المعركة بينه وبينهم بتمكُّنه منهم ووقوعهم جميعاً في قبضته وتحت سلطانه وقدرته ، مَنْ ذا الذي يعيبه في ذلك؟ أليس القصاص عدلاً ؟والأسير مغنماً ورد الاعتداء حقاً ؟ بلى كل ذلك عدل ، ولكن النبي ﷺ عاملهم بالإحسان والفضل فذلك كان شأنه كله مع أحبائه وأعدائه فعلى الرغم مما عاناه وقاساه هو وأصحابه من قريش قبل الهجرة وبعدها فإنه لما دخل مكة فاتحاً منتصراً ووقفوا جميعاً حول الكعبة وقد أحاط بهم عشرة آلاف مقاتل من المسلمين خاطبهم قائلاً : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

لقد أعطى النبي ﷺ أعظم مثال في التسامح الديني فقد كتب النبيﷺ لأهل نجران أماناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله يقول ابن سعد « وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم : أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، من بِيَعهم وصلواتهم ورهبانهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته »[1] وعلى هذا الهدي النبوي العظيم في التعايش الكريم والتسامح العظيم سار خلفاؤه من بعده .

وهذه أمثلة لصور التسامح عند الصحابة رضي الله عنهم :

ما رواه الإمام الترمذي في السنن عن مُجاهدٍ أنَّ عبدَ الله بنَ عمرو ذُبحتْ لهُ شاةٌ في أهلهِ فلمَّا جاءَ قال : أهديتُمْ لجارنَا اليهوديِّ؟ أهديتُمْ لجارنا اليهوديِّ؟ سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول : « ما زالَ جبريلُ يُوصِيني بالجارِ حتَّى ظننتُ أنَّهُ سيورِّثُهُ » .

وحين مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشيخ من أهل الذمة يقف على الأبواب يسأل الناس قال : ما أنصفناك أن كنا أخذنا المال في شبيبتك وضيعناك في شيبك . ثم أجرى عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه .

وحين اشتكت إليه امرأة قبطية من عمرو بن العاص الذي ضم بيتها إلى المسجد أرسل إليه عمرو وسأله عن ذلك فقال : إن المسجد ضاق بالمسلمين ولم أجد بداً من ضم البيوت المحيطة بالمسجد وعرضت على هذه المرأة ثمناً باهظاً فأبت أن تأخذه فادخرته لها في بيت المال وانتزعت ملكيتها مراعاة للمصلحة العامة ، لكن الفاروق عمر أمره بأن يهدم هذا الجزء الذي للمسجد ويعيد بناءه كما كان لصاحبته .

وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يصالح أهل الحيرة ويكتب في كتاب الصلح «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيتـــه وعيل من بيت مال المسلمين » .

---

١ - الطبقات الكبرى - ابن سعد (ج١ / ص٢٦٦) ، كتاب الأموال لابن زنجويه (ج٢ / ص٤٤٩) .

ومن الصفحات المضيئة في تاريخنا الإسلامي ما ورد أن الصحابة لما دخلوا حمص وفرضوا على أهلها الجزية فجاءهم أمر من أبي عبيدة بن الجراح بمغادرة حمص للانضمام إلى جيش المسلمين حيث مواجهة الروم في اليرموك أعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه ؛ وقالوا : إنا أخذناه في مقابل الدفاع عنكم أما وقد خرجنا فقد أصبحنا غير قادرين على حمايتكم فلزم رد ما أخذناه منكم ، فعجب لذلك أهل حمص أشد العجب وتمنوا لهم النصر على عدوهم .

وهذا عهد عمر بن الخطاب المكتوب لأهل القدس وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أن لا تُسكن مساكنهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ....وعلى ما في هذا الكتاب ذمة الله ورسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » وبمثله كتب – رضي الله عنه- لأهل اللد [1]

ومن حرص عمر رضي الله عنه على حماية غير المسلمين وصيانتهم من بعده وعدم نقض عهده معهم لم يصل في كنيسة القيامة حين أتاها وجلس في صحنها ، فلما حان وقت الصلاة قال للبترك : أريد الصلاة ، فقال له البترك : صل موضعك فامتنع عمر رضي الله عنه وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً ، فلما قضى صلاته قال للبترك : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي ، وقالوا هنا صلى عمر » وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ، ولا يؤذن عليها ، ثم قال للبترك : أرني موضعاً أبني فيه مسجداً . فقال : على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب ، ووجد عليها دماً كثيراً فشرع في إزالته [2]. وبمثل ما كتب عمر رضي الله عنه عياض بن غنم رضي الله عنه لأهل الرقة ولأسقف الرها [3]

---

١ - تاريخ الطبري - ج٤ / ص٤٤٩ .
٢ - تاريخ ابن خلدون - ج٢ / ص٢٦٦ .
٣ - فتوح البلدان - ص ٢٣٩ .

وحين فتح خالد بن الوليد- رضي الله عنه- دمشق كتب لأهلها « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدمن ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله والخلفاء والمؤمنين » [1] هم في ممارسة شعائرهم وإظهارها : « ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أونهار ، إلا في أوقات الصلاة، وأن يُخرجوا الصلبان في أيام عيدهم » [2]

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لعماله : « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولابيت نار » [3] ولما أخل بعض الحكام بهذه الشروط والعهود اعتبر المسلمون ذلك ظلماً وأمر أئمة العدل بإزالته ، ومن ذلك أن الوليد بن عبد الملك أخذ كنيسة يوحنا من النصارى قهراً وغصباً وأدخلها في المسجد فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكا إليه النصارى ذلك فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاد في المسجد عليهم ، فاسترضاهم المسلمون ، وصالحوهم فرضوا » [4]

« ولما شكا النصارى إلى عمر بن عبد العزيز في شأن كنيسة في دمشق كان بعض أمراء بني أمية أقطعها لبني نصر ، فردَّها إليهم » [5]

وقد سَمَتْ الشريعة الإسلامية في تسامحها مع غير المسلمين عندما قرر الفقهاء وجوب احترام غير المسلمين في عبادتهم فقرروا تحريم إحضار يهودي في سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعاً من عمل في إجازة لحديث رواه النسائي والترمذي وصححه « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت » .

---

١ - البلاذري في فتوح البلدان (ص١٦٦) ، كتاب الأموال لابن زنجويه (ج٢ / ص٤٧٣) .
٢ - أبو يوسف في الخراج (ص١٧٥) .
٣ - كتاب الأموال لأبي عبيد (ص١٣٨) .
٤ - أبو عبيد في الأموال (ص٢٢٣) ، فتوح البلدان (١٧١ - ١٧٢) .
٥ - المصدر السابق .

ويمتد أمان الذمي على ماله ، ولو كان خمراً أو خنزيراً ، وينقل الطحاوي إجماع المسلمين على حرية أهل الذمة في أكل الخنازير وشرب الخمور وغيره مما يحل لهم في دينهم يقول : « وأجمعوا على أنه ليس للإمام منع أهل الذمة من شرب الخمر وأكل لحم الخنازير واتخاذ المساكن التي صالحوا عليها إذا كان مِصْراً ليس فيه أهل إسلام- أي في بلادهم التي هم فيها الكثرة »[1]

والمراد هنا إظهار ذلك والمجاهرة به ، إذ إنهم أحرار في بيوتهم على أكل وشرب ما شاءوا .

قال الإمام مالك رحمه الله : « إذا زنى أهل الذمة أو شربوا الخمر فلا يعرض لهم الإمام ، إلا أن يُظهروا ذلك في بلاد المسلمين ويدخلوا عليهم الضرر ، فيمنعهم السلطان من الإضرار بالمسلمين »[2] قال القرافي وهو يُعدِّد صوراً للبر أمر بها المسلمون تجاه أهل الذمة : « ولين القول على سبيل اللطف لهم والرحمة ، لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم لاخوفاً وتعظيماً والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة نصيحتهم في جميع أمور دينهم وحفظ غيبتهم إذا تعرَّض أحد لأذيتهم....امتثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ[3]

وصايا الخلفاء والأمراء بأهل الذمة :

أرسل عمر رضي الله عنه كتاباً إلى عامله أبي عبيدة ، فيقول موصياً بأهل الذمة : « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحلها ووفِّ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم »[4]

---

١ - اختلاف الفقهاء (ص٢٣٣) .

٢ - التمهيد لابن عبدالبر (ج١٤ / ص٣٩٢) ، أحكام أهل الذمة (١/ ٣١٧) والمحلي لابن حزم (٩/ ١١٨).

٣ - كتاب الفروق للقرافي - (٣/ ٢١ - ٢٢) .

٤ - البلاذري في فتوح البلدان (ص١٤٤) .

ولما دنا أجله رضي الله عنه أوصى المسلمين برعاية أهل الذمة فقال : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً وأن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتلوا من ورائهم وألايكلفوهم فوق طاقتهم . رواه البخاري

وكتب إلى واليه في مصرعمرو بن العاص رضي الله عنه : « واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان٧٤] يريد أي من المؤمن أن يقتدى به ، وأن معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم ، وأوصى بالقبط فقال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » قال الألباني رحمه الله تعالى : صحيح على شرط الشيخين السلسلة الصحيحة، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال ﷺ : « من ظلم معاهداً أو كلَّفه فوق طاقته ، فأنا خصمه يوم القيامة ، احذر ياعمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً ، فإنه من خاصمه خصمه » [1]

وكان مما أمر به رضي الله عنه « من لم يُطِقِ الجزية خفِّفوا عنه ، ومن عجز فأعينوه»[2] وروى ابن زنجويه بإسناده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى شيخاً كبيراً من أهل الجزية يسأل الناس فقال : « ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك ، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير » [3]

وفي رواية أن عمر أخذ بيده وذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : « انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة ٦٠] وهذا من مساكين أهل الكتاب » ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.[4]

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عماله على الخراج : « إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاءً ولا صيفاً ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها

١- كنز العمال - المتقي الهندي - (حديث ١٤٣٠٤) .
٢- تاريخ دمشق - ابن عساكر - (ج١ / ص١٧٨) .
٣- الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٠ ، ١٥١) .
٤- الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٠ ، ١٥١) .

ولاتضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج، فإنَّا إنما أمرنا الله أن نأخذ منهم العفو فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دوني ، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك »[1]

خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب لنصارى الحيرة : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعِيلَ من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

وكتب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيزإلى واليه عدي بن أرطأة : « وانظر من ولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه »[2]

موقعة الروم :

في موقعة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم عام ١٥هجرية ، ٦٣٦ ميلادية انضم عرب الشام النصارى الموالين للروم إلى جيش المسلمين وحاربوا معهم ضد الروم ، مع أنهم ليسوا ملة واحدة ، دفعهم إلى ذلك معرفتهم بأخلاق المسلمين ورغبة في التخلص من ظلم الرومان.

فتح بيت المقدس :

في عام خمس عشرة من الهجرة سار أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من دمشق إلى بيت المقدس وأجابوه إلى الصلح بشرط أن يَقْدُم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستشار عمر الناس وأشاروا عليه بالسير إليهم ، وصل الفاروق إلى بلاد الشام وتلقاه أبو عبيدة أمير الجيش ورؤوس الأمراء خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان ، وترجل أبو عبيدة وترجل عمر وأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر فهمَّ عمر بتقبيل رِجْل أبي عبيدة فكف أبو عبيدة فكف عمر ، ثم سار رضي

---

١ - أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٩٤) .
٢ - أبو عبيد في كتاب الأموال (ص٩٤) .

الله عنه حتى صالح نصارى بيت المقدس ودخلها من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء وصلى تحية المسجد بمحراب داود عليه السلام وصلى صلاة الغداة- الصبح- في الركعة الأولى بسورة ص- وفيها ذكر داود عليه السلام وسجد وسجد الناس وقرأ في الركعة الثانية بسورة بني إسرائيل (الإسراء).

لك الله يا عمر أيها الفاتح العظيم تقرأ بهاتين السورتين لبيان موقف الإسلام تجاه أنبياء الله إيماناً بهم واحتراماً لهم وتقديراً وحباً، كأنها رسالة لبداية تاريخ جديد تاريخ العدل والرحمة والإنسانية تاريخ سوف يترك بصمته قوية وواضحة لجميع العالم، تلك البصمة التي لا يستطيع أحد أن يتجاوزها وهو يقرأ تاريخ أرض فلسطين أرض الوئام والمحبة بين الجميع، دخل عمر فاتحاً منتصراً قوياً، دخل عابداً لله معظِّماً أماكن العبادة فيضرب رضي الله عنه أعظم المثل في التواضع فيقوم بنقل تراب الصخرة في طرف ردائه وقبائه وينقل المسلمون معه، وقد كانت الروم قد جعلت الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود حتى كانت المرأة ترسل خرقة حيضتها لتُلقى فوق الصخرة، وبينما عمر بالجابية إذا بكردوس من الروم بأيديهم سيوف مسلولة فسار إليهم المسلمون بالسلاح، فقال عمر إن هؤلاء قوم يستأمنون فسار نحوهم فإذا هم جند من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح حين سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر-رضي الله عنه- إلى ما سألوا وكتب إليهم كتاب أمان ومصالحة.

فتح بلاد الفرس:

لكم عانى أهل الفرس ظلم حكامهم واستعبادهم لشعوبهم وممارسة التعذيب والاضطهاد وإرهاقهم بالضرائب الباهظة بالإضافة إلى النظام الطبقي الجائر حتى جاء الفتح الإسلامي فرفع المسلمون الظلم عن أفراد شعبها وكفلوا لهم حرية العقيدة ولم يتعرض المسلمون لمعابد نيرانهم وإنما بقيت عدة قرون حتى دخلوا في الإسلام طواعية وأغلقوها بأيديهم.

القبط في الفتح الإسلامي :

عاش نصارى مصر في عهد الوثنية الرومانية أقسى فترات حياتهم لما تعرضوا له من الاضطهاد والتعذيب والقتل حتى أنه لكثرة القتل سمي بعصر الشهداء حتى هرب رجال الدين إلى الصحراء ، ومنهم البطريرك بنيامين الذي اختفى ثلاثة عشر عاماً فقُبِض على أخيه وعُذِّب وحُرِّق ثم أغرق من أجل أن يدل على أخيه ، ولذا رحب النصارى بالفتح الإسلامي الذي أنقذهم من نار حكم جستنيان الذي قتل من قبط الإسكندرية وحدهم مائتي ألف و عندما دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر كتب عهداً بحماية كنائسهم ولعن أي مسلم يخرجهم منها وأعطى أماناً للأنبا بنيامين ورده لكرسيه بعد ثلاثة عشر عاماً من إقصائه عنه واستقبله بحفاوة عظيمة ، واستعاد الإسلام الكنائس المصرية من الاحتلال البيزنطي ولم يجعلها مساجد للمسلمين بل أعادها لنصارى مصر حتى قال أعظم فقهاء مصر الليث بن سعد ت٧٩١م إن جميع كنائس مصر قد حدثت في ظل دولة الإسلام ، لأن أقباط مصر لم تكن لهم كنائس حتى حررهم الإسلام وظلت الأغلبية على نصرانيتهم قرابة قرنين من الزمان .

المسلمون وأهل سمرقند :

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وفد عليه وفد من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن القائد قتيبة بن مسلم الباهلي دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمرهم أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرِجوا ونصب لهم القاضي جميع بن حاضر الناجي فحكم بإخراج المسلمين فأقر أهل سمرقند ببقاء المسلمين بين أظهرهم.[1]

---

١ - البلاذري في فتوح البلدان ص ٤١١ .

الدولة العباسية :

الأمير العباسي إبراهيم ابن الخليفة المهدي وعمه الخليفة المأمون مَثَلَ هو وبختيشوع الطبيب النصراني بين يدي القاضي أحمد بن أبي داوود فزرى إبراهيم على بختيشوع وأغلظ له فأحفظ ذلك القاضي فقال :

يا إبراهيم إذا نازعتَ أحداً في مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك ولا تُشِرْ إليه بيدك وليكن قصدك أمماً - معتدلاً- وطريقك منهجاً- واضحاً- وريحك ساكنة وكلامك معتدلاً ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم ، فقال الأمير : أمرتَ بسداد وحضضت على رشاد ولستُ بعائد إلى ما يلثم مروءتي عندك ويُخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يمحو زلتي ، ولم يتلف مالٌ أفاد موعظة.

الدولة الطولونية :

أحد الرهبان النصارى شكا إلى الوالي أحمد بن طولون أحد قواده بأنه قد ظلمه وأخذ منه مالاً بغير حق فأحضر الوالي وعزَّره وابنه وأخذ منه المال ورده للنصراني وفتح الباب لكل متظلم من أهل الذمة .

موقف ابن تيمية مع أهل الذمة :

لما تغلب التتار على بلاد الشام وذهب ابن تيمية ليكلم قطلوشاه قائد التتار بشأن الأسرى سمح قطلوشاه برد الأسرى المسلمين وأبى أن يطلق نصارى أهل الذمة فقال له ابن تيمية : « لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لأهل الذمة ولا لأهل الملة » .

التسامح في القضاء :

لم يتدخل المسلمون في الشئون التفصيلية للأحوال الشخصية والعلاقات الخاصة بغير المسلمين فلم يجبروهم على شريعة الإسلام ولا التقاضي أمام المسلمين إلا إذا تراضوا بينهم على ذلك .

نقل العيني عن الإمام الزهري : « مضت السنة أن يرد أهل الذمة في حقوقهم ومعاملاتهم ومواريثهم إلى أهل دينهم ، إلا أن يأتوا راغبين في حكمنا ، فنحكم بينهم بكتاب الله تعالى »[1] بل يمضي التسامح واحترام علمائهم وعدم تجاوزهم في القضاء إلى الحد الذي نقل العيني عن ابن القاسم « إن تحاكم أهل الذمة إلى حكام المسلمين ورضي الخصمان به جميعاً ، فلا يحكم بينهما إلا برضا من أسقفهما ، فإن كره ذلك أساقفهم فلا يحكم بينهم ، وكذلك إن رضي الأساقفة ولم يَرْضَ الخصمان أو أحدهما لم يحكم بينهما »[2]

المسلمون وبلاد الأندلس :

غزا موسى بن نصير بلاد الأندلس الذين عاشوا ظلم حكم النصارى الروم الذي امتد أكثر من مائتي عام بدءاً من سنة ٤٨٤م مع أنهم كانوا يدينون بالنصرانية إلا أنهم استبدوا بالسلطة ونالوا من الشعب فقسَّموا السكان إلى طائفتين :

الطائفة الأولى : وهم أرقاء المزارع والعبيد وكان هؤلاء مِلْكاً لسادتهم ، وليس له قانون يحميهم من التعذيب أو القتل وتنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الأرض ولم يكن لهم حق الزواج إلا بأمر سادتهم.

الطبقة الثانية : الطبقة المتوسطة وهم الأحرار من سكان المدينة ولم ينج هؤلاء أيضاً من الإذلال والظلم ودفع الضرائب للأشراف لينفقوها على ملذاتهم وأجبروا اليهود على التنصر وخيروهم بين اثنين إما أن يتنصروا أو يُنفوا من البلاد وتصادر أملاكهم فدخل الكثير منهم النصرانية ظاهراً وقبل الفتح الإسلامي بعشر سنين يتفق هؤلاء مع يهود بلاد العرب على القيام بثورة ضد القوط النصارى إلا أن القوط عرفوا بمؤامرتهم عام ٦٩٤م فسلبوهم أموالهم واتخذوهم أرقاء وربُّوا

---

١ - عمدة القارى شرح صحيح البخاري - للعيني (ج١٦ / ص١٦١) .
٢ - نفس المصدر السابق .

أبناءهم على النصرانية وأمروا ألا تتزوج اليهودية إلا بنصراني.[1] ولما جاء الفتح الإسلامي في بلاد الأندلس تغير الحال.

الأندلس تحت حكم المسلمين :

من يجهل من المشرق والمغرب أزهى فترة تاريخية تتألق فيها الحضارة البشرية؟ من يجهل من المشرق والمغرب أصفى أيام التسامح التي عاش في ظلها أصحاب الأديان الثلاثة بسلام وتعايش واحترام مما جعل هذه الحقبة هي النموذج الفريد في الدنيا كلها.

ويكفي أن أحيل القارئ إلى المراجع الأندلسية التي أرَّخَتْ لهذه الفترة ومنها :

* كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدِّثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، تأليف أبي القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (٤٩٤-٥٧٨م) وهذا الكتاب يقع في ثمانية عشر مجلداً.
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني ت١٠٤١ هجرية ويقع هذا الكتاب في عشر مجلدات .
* الإحاطة في أخبار غرناطة لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب .
* الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ٥٤٢م ويقع في ثمان مجلدات .

شهادات المؤرخين من غير المسلمين :

إن خير شاهد على التزام المسلمين بهذه المبادئ العظيمة هو شهادات غيرهم ممن عرفوا الإسلام وقرأوا تاريخه .

---

١ - سماحة الإسلام - الدكتور الحوفي .

أحد قواد الخليفة المعتصم أمر بجلد إمام ومؤذن اشتركا في هدم معبد من معابد النار في القرن العاشر الميلادي أي بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون كانت تملأ العراق وكردستان وسجستان وخراسان وأذربيجان ولم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار.

يقول السير توماس أرنولد في كتابه (انتشار الإسلام) بعدما ذكر أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين في الدويلات الإسلامية وكذلك أسماء الأطباء المسيحيين المقربين من الخلفاء قال : « إن المسيحيين أحرزوا ثروات ضخمة وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الإسلام الأولى بفضل ما كفل لهم من حرية العقيدة والملك حتى لقد كان منهم أصحاب نفوذ عظيم في قصور الخلفاء » .

المسيحيون في بلاد الشام :

كتبوا لأبي عبيدة « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » ثم أغلقوا أبواب المدينة في وجه الروم إخوانهم في العقيدة. [1]

وعن حرية الاعتقاد وعدم إجبار المسلمين غيرهم على اعتناق الإسلام يقول توماس أرنولد : « لم نسمع عن أي محاولة مدبَّرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قُصِد منه استئصال الدين المسيحي » .

المفكر الإسباني بلاسكو أبانيز في كتابه- ظلال الكنيسة- : « لقد أحسنت إسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية ، وأسلمتهم القرى أزمَّتها بغير مقاومة ولا عداء فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب ، وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وقهر ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير ،

---

١ - البلاذري - فتوح البلدان - ص ١٨٧ .

وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب ، فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى وبِيَع اليهود ، ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته ، فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها ، غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها » .

يقول روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكن ، وهو يتكلم عن الإسلام « فلم يكره أحداً عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالأسباب » .

آدم متز : « ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلَّتْ الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج ، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به »[1]

المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه : « تذكر شهادة بطريرك بيت المقدس حيث كتب رسالة في القرن التاسع لبطريرك القسطنطينية عن العرب يقول فيها : إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف »[2]

ول ديورانت : « لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، لقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم »[3]

---

١ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٩٣ .
٢ - شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٦٤ .
٣ - قصة الحضارة - ول ديورانت ج١٢ / ص١٣١ .